تقرير

نزول الروح في صبرا

بين 16 و18 أيلول 1982، دخل الجيش الإسرائيلي وميليشيا القوات اللبنانية إلى مخيم شاتيلا ومنطقة صبرا فقتلا وخطفا المئات. هنا، استعادة مختلفة لتلك الليالي

علاء العلي

يتململ شاهد عيان على كرسيه قبل أن يسأل من حوله: «سبعة ونص بنبلش»»، يجيبه مولوتوف «يلا». يرتفع صوت «أسلوب» وعبد الجبار بين الحضور «فدائي، فدائي يا أرضي يا أرض الجدود». تتجاوب الأصوات من حولهم في متابعة النشيد الوطني الفلسطيني. هذه الأسماء، بالمناسبة، هي الأسماء المستعارة لكتيبة خمسة. لحظات قليلة وتظهر ظلال محمود درويش على لوحة بلاستيكية معلقة في المكان، قبل أن يعلو صوته «لا بد لنا أن نتذكر بين الحين والآخر صبرا وشاتيلا». تنشغل الأيادي التي بالكاد تظهر على اللوحة البلاستيكية بالتصفيق، فيما تنشغل أيادي العاملين في استوديو مخيمات بين توزيع القهوة العربية على الحاضرين وزرع الشموع بين جدران المقبرة وأشجارها. تتماهى ظلالهم مع ظلال أخرى رسمت في ليال سابقة بيدي جزار. تنطلق الدكتورة سوي أنج وإيلين سيجال الممرضة الأميركية والشاهدتان على أريل شارون أمام لجنة كاهان بمرافقة الدكتورة عزيزة الخالدي لاستكشاف الفعل المخيمجي الأول.

في محاذاة البوابة، «جرافيتي» لعبارة من قصيدة في مديح الظل العالي لدرويش «صبرا هوية عصرنا». وتحتها تظهر لوحة ناجي العلي التي جسدت المجزرة. خطوات قليلة إلى الأمام عبارة أخرى أو رسالة لمن يطلب تسليم السلاح الفلسطيني في المخيمات. «لماذا أخذت السلاح بعيداً؟»، استبدل حرف الألف الأخير فيها برسم لبندقية فوهتها للأسفل. تعلق إيلين سيجال «مذهل».

يختفي صوت الموسيقى ليرتفع صوت شاهد عيان «هلق رح نكفي الشغل المخيمجي مع جزار، فيكم تساعدوا بالدهان أو توقفوا ليرسم خيالاتكم». يطلب جزار من أحد الصحافيين أن يكون المبتدئ. يتردد المدعو قليلاً قبل أن يسمع إصراراً «إحنا ما داعيين مشاهدين طلبنا مشاركة». يقترب أحد الأشخاص، معرفاً د. سوي بأسلوب. تبدي إعجابها بالموسيقى والعمل بصورة عامة. يشكرها ويخبرها عن مساهمة رفيقة دربه عازفة الفلوت نيسم جلال ويعرف بكتيبة خمسة، ثم يسأل: «شو متذكرة من أيام المجزرة؟». تبدأ بالحديث، فينصت باهتمام. لحظات وتقترب إحدى العاملات في استوديو مخيمات، مقترحة أن تتابع الدكتورة حديثها عبر «الميكروفون». تتولى الدكتورة عزيزة الخالدي الترجمة. يصغي الجميع باهتمام إلى وقائع الليالي الثلاث للمجزرة، أي كيف أُضيئت السماء بالقنابل المضيئة، وكيف دخل القتلة إلى مستشفى غزة حيث كانت تعمل مع «إيلين» طوال الوقت على إنقاذ الجرحى مع 20 متطوعاً أجنبياً، وكيف اقتيدوا من المستشفى إلى مكان قريب من المقبرة الجماعية. «فلولا جنسياتنا الأجنبية لكنا في عداد المدفونين هنا»، تقول. أما الدكتورة عزيزة والفريق الطبي الفلسطيني فقد نجوا لخروجهم من المستشفى قبل دخول المجرمين بسويعات قليلة. هكذا، أصبح لسوي وإيلين موعد سنوي كل أيلول مع لقاء الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. تنهي الدكتورة حديثها، بينما يتولى حسين ديماسي، من استوديو مخيمات، شرح فكرة الفعل المخيمجي لفلسطيني آتٍ من السويد «لازم نغير الطريقة يلي منحكي فيها عن المخيم ومشاكله ونشتغل بدل ما نحكي». يستمع بعدها الجميع إلى إحدى الناجيات من المجزرة، ومن ثم لأحد المقاتلين المدافعين عن بيروت أثناء الحصار الإسرائيلي. ينهي جزار آخر رسومه الأطفال. يرتفع صوت شاهد عيان شاكراً المشاركين والراعين لهذا الحدث.

فعل مخيمجي

«نزول الروح»، هو عنوان الفعل المخيمجي الأول والمستوحى من كلمات لمحمود درويش. ويطمح العاملون في استوديو مخيمات إلى تحويل مكان المقبرة الجماعية لشهداء المجزرة إلى متحف أو معرض يستقبل الزائرين على مدار العام ليعايشوا جزءاً من التاريخ الفلسطيني في لبنان وجرائم العدو الصهيوني وعملائه بحق اللبنانيين والفلسطينيين عبر الصوت والصورة الموثقة. فكرة تحتاج إلى أكثر من مبادرة فردية.

حنظلة بتصرف

(تصميم معاذ عابد)

رابوس على التلفاز، متهماً الشبان بالكذب، وأن كلامهم ما هو إلا هلوسات وتخاريف، وتوعد بأن يحاسب كل من أتى إلى بيته. ومن ثم تحدث صديق له وقال: إن الناس مخطئون. كان عليهم ألا «يتقلو بالعشا»، فلو كانوا ينامون باكراً و«ع خفيف»، ويتوقفون عن شرب المسكرات ويصفون نيّاتهم، لما واجهوا هذه الكوابيس (كم رغبت في توجيه سؤال إلى صاحب أبو رابوس هذا، أنه لو خرجت فتاة من بيتها متأخرة ليلاً بعض الشيء، وخرج عليها مجموعة من الشبان واغتصبوها، هل ستقول لها وما أخرجك من البيت ليلاً ما بالك ولو قتلت أيضاً؟ ألا يوجد جريمة واضحة ومهما كان السبب، حتى ولو كانت الفتاة بقميص النوم، هل من حق أحد قتلها؟). من ذاك اليوم والكوابيس لا تفارقني، وقلق طوال الوقت. ما يخيفني اليوم ليس أبو رابوس وجماعته الذين يهددون كل من ينتقدهم بالملاحقة، بل هو شعوري كم بتنا نحن والمخيم يتامى.

رسائل صبابة وحنظلة

«القمر كنّو بلدنا ناسي»

الحرّ لا يطاق الآن. كأنني في غرفة سونا يكاد ينفد منها الأوكسجين. لا منفذ للهواء هنا إلا شباك يتيم مطلّ على زاروب، يطلّ على أسلاك كهرباء، مطلّة على قطعة سماء. هناك على أرضية الغرفة، تمددت أنا الأخرى قرب قطي أقاسمه برودة منبعثة من بلاط أرضية الغرفة، وانتظرت، ثم انتظرت حتى فقدت الأمل بعودة التيار الكهربائي مجدداً، بعد انقطاعه المتكرر والمعتاد. قررت التسلق الى سريري، علّ النوم يتسلل الى عينيّ رأفة بحالي. ولكن عبثاً، فالحر شديد وخانق. كيف سأتمكن من النوم الآن؟ يا ربّي كيف سأتمكن من الاستيقاظ في الصباح باكراً للعمل، وأنا أصلاً أحب النوم، وحتى عندما أنام لساعات كافية، أحتاج إلى فيل لينتشلني من فراشي؟ أووووف.

أحاول تقطيع بعض الوقت، أمد يدي لمداعبة القط الذي لا يزال في مكانه يفترش الأرض، لكنه سرعان ما يضيق ذرعاً بمداعبتي، فيغيّر مكانه بعيداً عن متناول يدي العابثة. المسكين، أيّ جحيم يعانيه الآن. تخيّلوا لو كنتم/نّ مكانه، كتلة من اللحم مغلّفة بسجادة من الوبر! لا أعرف كم مضى من الوقت، لكن يبدو أنني غفوت لبرهة. أفتح عينيّ باستجابة عفوية لقمر معلّق بالسماء يرسل انبعاثات ضوئه بحياء كأنه يحاول طبع قبلة قبل النوم على خدي. يبدو القمر استثنائي النقاء الليلة، ما كنت أعرف أن شكل القمر قد يختلف مع اختلاف الوضعية التي نكون فيها عند النظر إليه. لم أعهده بهذا الجمال من قبل. لطالما كنت أتخيل وجود وجوه بشرية عليه أو حتى أشكال غريبة تأخذ هيئة إنسان أو حيوان. وأجزم أنني رأيت خريطة فلسطين محفورة على قرصه مرات كثيرة. ولكن الآن لا أرى في القمر إلا أنت. هذا ما كان ينقصني، سبب إضافي ليؤرقني! لا أعرف لماذا استحضرتك في تلك اللحظات، أتذكّر حين أسمعتني أغنية مروان عبادو «القمر كنّو بلدنا ناسي»، لا أعرف لماذا وكيف لم ترقني كثيراً وقتها. لعلّ السبب اعتقادي بأن القمر لا يمكن أن يكون بهذه القسوة. رغم أنني خلال عودتي إلى فلسطين أدركت كم أن هذه الأغنية جميلة وأن كلماتها صادقة. فالسماء هناك شديدة الظلمة كأنها في حداد أزلي على غيابه. أو ربّما السبب ببساطة، هو أنه في وقتها ما كان لشيء أو أحد يضاهيك جمالاً.

ناديا خير ـ مخيم برج البراجنة

أحلام يقظة

للأسباب الواهية التي لا تُقنع أحداً سوايَ، ولأسباب أخرى لا أعرفها، وربما لا أريد معرفتها، أمشي ولا أشعرُ بالمسافة ولا بالتعب مُطلقاً. لا وجوه، لا ظلال، فقط أرى خطين لا ينتهيان. أمشي لأراني حرة من نفسي، أملأ غزة برائحتي، ثم أعود الى البيت لأنام طويلاً. الكهرباء لم تعد تعني لي الكثير، فتوفر التيار الكهربائي لا غيابه هو الاستثنائي، وهو ما يُثير دهشتي، وربما غضبي! نعم غضبي، لأنه يبدو كوهم إضافي صغير سُرعان ما يتبدد. لذلك أنام في كل الأحوال، وعقلي يُخزّن كل ما مررت به، يُراودني ابن بطوطة وابن سينا ورحلاتهما، حينما سمعتُ بهما لأول مرة، كنتُ أفكر كيف يُضيعان أعمارهما في التجوال؟ ماذا يستفيدان؟ القليل من الكتب؟ والآن شوارعُ غزة تُخبرني بصمت الإجابة لطالما تحيرتُ كثيراً: البلادُ هي كل ما يبقى من الذاكرة، فأسكنيني هناك بكِ، ماذا أكون إن نسيتِني يوماً!

وأبكي كلما مرّ هذا الحوار بيننا في المنام، فأُسرع لأسجل آخر شوارع مررتُ بها، أكتب عن الوجوه، عن الناس، عن الأشجار، عن الذين خذلوني، عن كل من أحبّني..

حتى أضحت ذاكرتي ممرات ضيقة أشبه بدهاليز لتعذيب المساجين، سألني: ما الذي يدفعك إلى كتابة يومياتك يوماً بيوم بهذا الإصرار؟ فأجبته: ضيّعت سنوات دون كتابة، فعرفت أنه لا شيء يبقى سوى الذاكرة، ولسبب مُبهم لا أعرف مصدره، أشعر بأنني يوماً سأُغادرُ هذهِ البلاد، فأكتب كل شيء عنها، وعني! أكتب لأنني لا أريدُ أن أخذلها، فأنساها يوماً، لو رحلت، كالذين رحلوا!..

فنجان قهوة بارد، والقليل من الهواء يتسرب بين الفينة والأخرى، فيذهب سريعاً، مُخلفاً أكواماً من الرطوبة تسبحُ في الغرفة، وأخبار الراديو تقرع رأسي كطبلٍ، أُركّزُ خمس دقائق على الأكثر، ثمّ تبدأ تلك الأخبار بالدخول إلى منامي حافية، وكبطلة قصة أُحاول أن أصنع فرقاً وتغييراً، فأفتح بوابة المدينة، أجمع الناس لخطاب أُطالبهم باختيار رئيس، بلبلة وطبل، وأصبح لنا رئيسٌ جديد مُنتخب، برنامجه الانتخابي بدأ بالعمل.. الكهرباء حق شرعي وأساسي، ولن تقطع، والمعابر سوف تفتح. ألا ترون الشمس.. الكل ينظرُ فوق.. نعم نراها، لم يعد هناك يهود..!»

لا لم أنم، هي أحلام يقظة يا صديقتي!

أماني شنينو ـ غزة